لا .. ليس لشكور

قصة بقلم الآنسة سميرة عزام

عندما التفت الى أم شكور وقال رادّاً على رجائها « أجل افعلها » .. لم يكن ما سمعه جديداً عليه ، فلطالما راوده برفق وألح عليه بعنف ، حتى بات من العسير ان يستبعد الخاطر او يستهجنه او يسخر منه كما كان يفعل قبلاً ..

(وقبلاً) هنا ترجع الى ما قبل مرض شكّور ، وقبل ان يعود ابنَه طبيبٌ يقول : « أريحوا الفتى على سرير ودعـــوه مستلقياً على ظهره واقصروا طعامه على اللبن والحساء الخفيف وطهروا «بالليزول» كل آنية يلمسها ، فاصابته بالتيفوئيد خبيثة » .

لقد خرج الطبيب من بيتهم يلبس الوجه العادي الذي له .. فشكور ليس اكثر من (حالة) يعنيه منها ان يشخص مرضها ويختار الدواء ثم يمضي الى (حالة) جديدة .. ولكن ابا شكور كان قلقـــاً كما كانت زوجه ، وكان ضيقـاً بيومه الذي لا يشبه بقية الايام .. فهذا الفتى القوي كالحصان يصارع الحمى حتى يلقي سلاحه امامها .. وهذه أمه جزعة وجلة خائفة ، تطوف بالسرير حائرة فيما تفعل .. او تتوجه الى ايقونة العذراء في قرنة الغرفة فتركع ركوعاً قلقاً وتسخو بالزيت تملأ به الكوب امام صورة العذراء ليشع لهب الشمعـــة الصغيرة ويضيء صفحة الصورة القديمة السمحة ..

ولا يكاد ابو شكور يستقر في مكان .. فيرى ان يذهب للمحل على كره منه .. يقصده موزع الخاطر والروح تمشي ، على شفتيه التمائم ، فما ان يطأ العتبة وتأخـذ عينه محتويات المحـــل جملةً ثم تستقر لحظة على انموذج مُعيّن حتى يقتحمه خاطر اسود ويقفز فكره الى شكور .. شكور المريض بالحمى ..

ويستفظع الصورة فينتفض ويغمض عينيه بيده يبعـد عنهما الصورة .. اعوذ بالله .. التوابيت للناس جميعاً إلا لأهل بيته .. إلا لشكّور .. بالذات ألا بئس الخاطر !

ويتماسك ويدخـــل ويتهاوى على اول كرسي ثم يروح كالأبله يجيل فيما حوله عينين زائغتين . لقد قضى حياته بين هذه النماذج الكئيبة يصنعها بيديه أو يعلم اخاه صنعها ، فعالمه موصول بعالم الموتى ، وصـــلة الوصل هذه النعوش المصفوفة حواليه حمراء من خشب الزان ، بُنية من خشب الجوز ، بيضاء مدهونةً لمن يريدها هكذا .. مسمّره بالصلبان للنصارى ، بسيطة خلواً منها للمسلمين ..

هذه النماذج بالنسبة له قطع اثاث عادية ، لا تكاد في عرفه تختلف عما يعرضه جيرانه من اصحاب محـال سوق النجارين في واجهاتهم من حاجيات يغرون بها العرائس ، وذوي الحاجات ..

خمسة وعشرون عاماً كان يفتح خلالها باب رزقه وإياهم مع كل طلّة صباح ولا يتحرج ان يدخل ويأمر صبيـــه بطلب فنجان قهوة يشربه مستأنياً وهو يقول : « خذ هذا الأسود ذا الصليب الفضي جانباً وأزل غباره فحالة ابي جبران كما سمعت ثقيلة .. وما اظن اهله إلا آتين يوصون له بنعش ، ألا ترى هذا أليق نعوشنا برجـل يخلف للدنيا مئة الف ليرة ودارين في الجبل وخاناً في المدينة ؟ »

أو يأخذ كرسياً يسنده الى البـاب ويجلس يرقب الناس يمرون امامـــه متوجســـين ، فمنهم من يلتفت اليـــه بكثير من الفضول .. وبعضهم يحث الخطى ليتجاوزوا مصـــائرهم .. وبعضهم ، وأكثر هؤلاء من العجائز والشيوخ ، يرفعون أيديهم مصلّبين بأوتوماتيكية تعوزها حرارة المؤمن ...

على هذا العالم فتح عينيه وجَيْبَه . منذ جاء الدكان يتتلمذ في نجارة النعوش على زوج عمته .

وفي اول مرة قدم فيها المحل ، هذا المحـــل نفسه ، احس برعشة في اطرافه ؛ وما جرؤ على اجتياز العتبـة لولا صوت المعلم حنا زوج عمته الذي صاح فيه :

— مالك يا ولد ؟ خائف ؟ ادخل فلن تموت قبـل اجلك . وحتى لو مت .. فلن تخسر الدنيا كثيراً بموت حمار مثلك .. ادخل !..

فبلع ريقه ودخل . ومن ساعتئذٍ ربط حياته بنعوش المحل .. واشتد قلبه في عشرتها ، فما عاد مرآها يثير فيه شيئاً ، وما عادت خيالاتها السوداء تزعج لياليه ، وما عاد يبالي لو يسهر على الطلبات « المستعجلة » يجلو التوابيت بقماشـة سوداء على ضوء مصباح شحيح الذبالة يرمقه من الزاوية بعين خابية كعيون الموتى ، ولا يكاد يفرش ضوءه الا على جزء من الحانوت وتبقى الزوايا

الاخرى شبه معتمة تنام فيها الاشباح .. وتقوم ..

ومرة لم يتحرج، حين ضربه ابوه بقسوة، إن يهرب من البيت ويفزع الى الدكان كما يسميها يتوسد نعشاً ينام فيه الى الصباح.. لقد كانت نظرته الى الامر طبيعية عاقلة .. فالدنيا رحلة قصيرة تنتهي حتماً الى واحد من نعوشه السوداء والحمراء والصفراء. اليس سخفاً ان يتعامى الانسان عن الحقيقة ؟ ولا مهرب منها ؟ اليس مضحكاً ان يؤمن بالآخرة اكثر الناس .. ثم يستمهلونها حتى تتعب منهم الارض ؟

لم لا يكونون كهذا الواحد الكهل الذي جاءه مختاراً يقول:

— اسمع : ارني احسن نعوشك اشتريه وارميه في بيتي حتى يسترد الله الوديعة .. فما ارى (اولاد الكلاب ...) ابنائي الا مستكثرين عليّ واحداً ثميناً لو مت ..

وما يعني ابا شكور تطيّرهم هذا واطلاقهم عليه انحس الاسماء ما دامت آجالهم مربوطة بنعوشه ، وما دامت تجارته نافقة رابحة ، وما دام لم يعدم بينهم رجلاً واسع العقل والنفس كالخوري ابراهيم ، يرضى ان يزوجه ابنته وان يسعى لخيره كلما دُعي لاتمام خدمة دينية لأحد المحتضرين فيوصي اهله — ولا يسهو قط — بشراء نعشه من لدن ابي شكور وهو كفيل لهم بمعاملة خصوصية !!

(انا هو الموت والحياة)

وتستقر عيناه على هذه الآية، مكتوبة بالفضة على لوح اسود معلق على الجدار .. فيشيح وينتفض ويظل في ضيق ينتظر حضور اخيه ليبحث معه في الوعد الذي قطعه على نفسه حين التفت الى ام شكور وقال . « اجل .. افعلها ! »

هل يفعلها حقاً ؟ ؟

الواقع ان مسألة النذور هي مسألة عاطفية لم يكن بها من المؤمنين وهو قد تسرع بعاطفية رعناء في قطع الوعد على نفسه. ولكنه شعر بأنه في حاجة لان يفعل شيئاً من اجل شكور ، ان يضحي قليلاً .. ان يتقرب الى الله والعذراء .. ان يطمئن جزع ام شكور التي حلمت حلماً خبيثاً إذ رأت في منامها عمّاً مائتاً لها يزورها .. وكان كاهناً كأبيها .. فانتفضت .. تهزّ ابا شكور وتحكي له كيف ان عمها هذا ناداها مرتين بـ «ياحنه» وقال لها « اعطني شكور .. اريده بجانبي » فأبت عليه هذا ..

وبعد حلم ام شكور بيومين فقط زارت الحمى شكوراً فضربت امه كفاً بكف وقالت :

— تفسر الحلم يا رزق .. نحن بحمايتك يا مريم. يا عذراء.

هو ذا اخوه قادم.. بوجهه الجامد الذي لا يعني شيئاً ، يلبس البذلة التي لها لون البن المحروق يدخل كالعادة فما يبالي ان يسلم بأناة بل يتجه الى خرقة التلميع ويستأنف ما انقطع من عمل الأمس ..

ماذا يقول لأخيه ؟ ان أخاه لا يؤمن بهذه السفاسف، وسيهزأ منه بلا شك ويضحك منه ومن زوجه معاً، ويعيّره بانه صار يحمل (عقل نسوان). إن شكور سيشفى والطب كفيل بذلك، فما معنى ان يهجر صنعته ، ما معنى ان يغلق باباً عاش ميسوراً منذ دخله ؟

هل يقول له بانه تعب من رؤية هذه الأشكال ؟ تعب من ملاقاة وجوه تدخل محله منقبضة متجهمة ولا تخرج إلا قائلة اللهم اجعلها الأخيرة ! ! ؟

لقد تعب من مرأى هذا النعش الصغير بالذات ..

الأولاد لا يموتون فلم اختار ان يصنع نعشاً صغيراً ..

هل يكون هذا (الاحتياطي) من نصيب .. ؟

إخزيك يا شيطان ..

لم لا يرفع أخوه رأسه ؟ لم لا يقول مالك ؟ .. لم لا يفهم

مُسَابقة «الآداب» الشِعْرِيّة

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً – عودة اللاجئين
ثانياً – الوحدة العربية
ثالثاً – المرأة في المجتمع العربي
رابعاً – حرب على الاستعمار
خامساً – حرب على الاقطاع

الشروط

١ – يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد
٢ – يحسن بالقصيدة الا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين
٣ – لاضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر
٤ – تنتهي المسابقة في آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤ .

الجوائز

الاولى – ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها
الثانية – ١٢٥ « « « «
الثالثة – ٧٥ « « « «

من تلقاء نفسه ويعفيه من مهمة الكلام . ؟

سيهوي بالفأس على هذا النعش الأصفر الكالح بالذات . . يحطمه ، ويلقي بخشباته ، الى الطريق !

لقد تعب .. تعب .. اسمع يا هذا ، اعطني ..

ويرفع اخوه رأسه فيراه محمر العين منفوش الشارب ، ويداه تنتفضان بعصبية فيدنو منه والحرقة المزيتة لا تزال بين اصابعه ويقول بكل هدوء .

– انت مريض ، عد الى بيتك ..

لا .. لن يعود .. لن يعود قبل ان يفعل شيئاً .

لقد اوشكت ام شكور ان تنذر امام « العذراء » ان يترك ابو شكور نعوشه لو اشفقت (السيدة) على وحيدها فاستمهلها على النذر ريثما يفكر ، ولكنه اعطاها وعداً لا يسهل عليه ان يرجع عنه ، ثم ان حال شكور ثقيلة ، عيناه محمرتان ولسانه ابيض كالجص ، والعرق الغزير يغسل جبهته الصفراء .

لو عاد دون ان .. لا .. لن يعود ، بل سيمضي يفتش السوق عن دكان ينقل اليه نصيبه من العدة ، وما له وللتوابيت ؟

الا يشتري الناس الكراسي ؟

الا يحتاجون الاسرة ؟

اما من تجارة غير الموت ؟ ؟

وتحمله قدماه الى اقرب سمسار .

– اريدها دكاناً صغيرة .. كل شروطي فيها هو ان تبعد عن محلي الحالي .. متى تدبر الامر ؟ غداً ؟ بعده ؟ هل اطمئن الى وعدك ؟

آه ، ويتنفس ابو شكور الصعداء ، سيعود الى البيت ومعه اربعة اطباء مرة واحدة .. وقد ترضى العذراء ، وترحمه السماء ويشفى شكور ..

وسيمر باخيه فينبئه بالامر على عجل ، بلا توقف ، ولن يلقى بالاً لاعتراضاته ، ولكن لا .. سيؤجل هذا الى الغد ، ويمضي الساعة لبيته ..

وسار ابو شكور مستعجلاً وبلغ محله فما التفت ، اذ خشي ان يرى اخاه او يلمح التابوت .. التابوت نفسه . ولكن اخاه يبصر به فيناديه فاذا هو يتسمر في مكانه قليلاً ، ثم يدير رأسه ببطء فتستقر عيناه لحظة على الباب الاسود الكبير ، ثم تمتدان بلا ارادة منه الى الزاوية اليمنى من الحانوت .. الى حيث يتكىء التابوت الصغير .. التابوت الاصفر ، الفاقع ، البغيض ، وقد انزاح غطاؤه قليلاً وبدا عند موضع الرأس .. هوة جشعة تريد .. لا .. مستحيل .. هذا ليس له .. ليس له ولن يكون .. اجل لن يكون .. له .. او لأحد .. ويقبل ابو شكور عنيفا كالثورة .. قويا كالحقد وقد تقبضت اصابعه المتشنجة على فأس انتزعه من صندوق .. وراح يهوي به في ضربات عصبية مجنونة متلاحقة على النعش الصغير فما خلاه إلا حطاماً راح يبعثرها بقدميه ..

سميرة عزام